الباب الثاني
في علومه وفضله

كان ~ يتكلم في علوم المعارف بأحسن كلام وأتمه بل لعلمه كان قطب رحاها وشمس ضحاها وكان ~ يقرأ عليه رسالة الإمام القشيري وشرحها للإمام العالم أبي محمد عبد المعطي الأسكندري[١] ، ويتكلم عليه بأحسن كلام ، وتفسير القرآن العزيز للواحدي[٢] ، والشفا للقاضي عياض[٣] ، وكتاب المدخل لأبي عبد الله ابن الحاج[٤] ، وقمع الحرص بالزهد والقناعة للقرطبي[٥] ونحو ذلك ، يبتدي كتاب بعد الفراغ من غيره ، وكان يقرأ ذلك

---

(١) أبو محمد ، عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي بن عبد الخالق اللخمي الإسكندري ، المالكي ، الضرير المعروف بابن أبي الثناء ، المتوفى بمكة سنة ٦٣٨هـ ، فقيه مالكي من مصنفاته الدلالة في فوائد الرسالة ، المشار إليه بالنص ، ومن مصنفاته أيضًا شرح الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي ، وشرح منازل السائرين للهروي وقد طبع الأخير ، ونشر بالقاهرة سنة ١٩٥٣م ، وقد ترجم له الذهبي في تاريخ الإسلام ج٤٦ ، ص٣٧٠ .

(٢) لأبي الحسن ، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري ، المفسر ، الشافعي ، المتوفى سنة ٤٦٨ هـ ، ثلاثة تفاسير البسيط والوسيط والوجيز ، ولعل المقصود منها الوجيز ، وانظر ترجمة أبي الحسن عند ابن خلكان : ج٣ ، ص٣٠٣ ، و الذهبي في السير : ج١٨ ، ص :٣٣٩ .

(٣) هو كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض بن موسى المتوفى سنة ٥٤٤هـ .

(٤) كتاب المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها ، ألفه أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي ، المعروف بابن الحاج ، المتوفى سنة ٧٣٧هـ .

(٥) قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكف والشفاعة لأبي عبد الله ،محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، القرطبي ، المتوفى سنة ٦٧١ هـ ، صاحب التذكرة في أحوال الموتى والآخرة والتفسير المشهور .

يوم الجمعة بعد العصر ، ويوم الثلاثاء كذلك بالمدرسة الصالحية .

وقرأ عليه من الحديث الموطأ ، والجمع بين الكتب الستة البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود والنسائي والموطأ ، وكان له السماع الكثير في الحديث وكان يشغل أولاد أخيه في العربية والأصول ، وكان يعرفهما معرفة جيدة ، وكان أكثر اشتغاله في الفقه ، ويرى أنه الأهم [١٠/ ب] وكان إلقاؤه له أحسن إلقاء ، يشهد له معاصروه بذلك ، ويرون أنه أحسن إلقاء من الجميع ، ولا يجاريه أحد في ذلك .

وكان دائم الاشتغال ، فكان يشتغل ﷺ من قريب ثلث الليل الأخير في مكانه ، ثم صار في آخر عمره يشتغل بالعبادة والتلاوة إلى الفجر ، ثم يشتغل إلى نحو الثالثة في النهار ، ثم يأتي إلى المدرسة الصالحية ، فيشتغل إلى الغروب ، ثم يذهب لمنزله وهو تال القرآن الكريم ، فينتظره ناس من حين خروجه من الأزقة فيقرؤون عليه للعشاء ، ثم يدخل المكان الذي فيه الجماعة ، فيصلي ثم يأكل لقيمات مع الجماعة ، ثم يشتغل إلى وقت جيد في الليل .

هكذا دائمًا ، وكان مع ذلك صائم الدهر إلا الأيام المنهي عنها ، ويفطر في بعض الأيام إذا دعي ، وكان الداعي صالحًا بشرط[1] أن يعلم قبل ذلك اليوم ، وله مع هذا القيام في الليل ، والتلاوة الكثيرة بحيث أنه يحصل له من الختمات أكثر ممن هو متفرغ لتلاوة القرآن ، وكذلك من العبادة ، وكان ﷺ إنما يشارك الطلبة غالبًا بظاهره ، وقلبه متعلق بالله تعالى والاعتبار .

وسألته مرة بعد أخرى فقال : آه ، وانجذب مما كان فيه ، وشاهدت منه

(١) ساقطة من نسخة

ذلك فعلمت أنه كان يتكلم ، وفكرته في الملكوت ، وكذلك [١١/ أ] كان حاله في مشيه فقد أخبرني الشيخ الصالح بكتمر [١] أنه قال : رأيت سيدي الشيخ ليلة ، وهو ماش وعيناه مرتفعات للسماء وكأنهما كأسا دم ، فقال : فعلمت أن الشيخ حينئذ في وارد عظيم .

وكان يحصل له النعاس بين الجماعة ويقرر المسألة فيقررها صحيحًا ، اعتبرت ذلك أنا وغيري غير مرة ، بل رأيته ﷺ بعد موته وتكلمت معه في مسألة فذكر فيها غير ما قلته فانتبهت ووجدت الصحيح ما قاله ﷺ .

وكان يحاسب نفسه على النعسة وقد أخبرني من أثق به أنه نعس يوما في التربة بالليل فسكت الجماعة ، فأفاق ﷺ [٢] ، وقال لهم : أنتم سكوت فوتموني خيرًا كثيرًا في هذه الساعة .

ورأيته إذا غلبه النعاس يقوم ويمسك شيئًا ، ويقرر كذلك المسائل ، ويمشي إلى الخلاء أو نحوه ، حتى يذهب عنه النعاس .

وكان مع هذا الاشتغال الكثير لا يحتجب عن صغير ولا كبير ، بل يدخل عليه الفقهاء والقضاة والناس للسلام ، وطلب الدعاء والبركة .

وكان يقرئ الكتب المعقدة كابن الحاجب[٣] ، والتهذيب وغيرهما[٤] بغير

---

(١) قلت : أظن أن ليس هذا ببكتمر الساقي الأمير نائب الناصر المتوفى ٧٣٢هـ ويغلب على الظن أنه من مريدي الشيخ وأحد تلامذته .

(٢) في نسخة ~ .

(٣) أي المختصر الفرعي أو المختصر الفقهي جمع فيه قرابة ستين ألف مسألة في فقه المالكية بلفظ مختصر موجز ابنُ الحاجب المارة ترجمته وقد شرح خليل بعد ذلك هذا المختصر وهو الشرح المسمى بالتوضيح وقد من الله علي في المشاركة بنشره كاملا لأول مرة .

(٤) لم أهتد إليه ولعله يقصد تهذيب البراذعي للمدونة .

مطالعة ، وحل ابن الحاجب مرارًا ، قبل أن يظهر له شرح عندنا ويفتح عليه [١] بما لم يفتح على غيره لكثرة النور الذي عنده ، وكذلك لم يكن يجاريه غيره .

ولقد أخبرت أن رجلًا من العلماء الفضلاء عمل على درس يقرأ على سيدي الشيخ ثلاثة أيام وهو من أهل البحث والنظر والاشتغال بالعلوم العقلية المرجوع إليه فيها ثم جاء إلى الدرس فتكلم مع سيدي الشيخ فقطعه الشيخ عاجلًا .

وأخبرني القاضي الأجل الصالح حمزة نجم الدين [٢] وهو من جملة أصحاب سيدي الشيخ ومحبيه أنه كان يرى الشيخ إذا تكلم يخرج من فيه نور .

وكان ﷺ إذا حسر عن ساعديه يظهر عليهما النور .

وكان مع هذا العلم العظيم لا يدعي دعوى ، بل يعترف بالتقصير ولا يرى نفسه أهلا للإقراء ،ويقول : إنما جلست لأصحح على المبتدئين وأقرهم .

وكان يقول للطلبة : إنما نحن إخوان نتذاكر العلم وأي من أظهر الله تعالى الحق على لسانه قبلناه .

وكان ~ ممن قد استوى عنده الأمير والوزير والفقير ، والمدح والذم [٣]

---

(١) في نسخة له ~ .

(٢) أبو يعلى حمزة بن علي بن محمد بن أبي بكر بن عمر بن عبد الله بن علي السبكي المالكي نجم الدين المتوفى سنة ٧٧٧هـ ، قال ابن حجر : سمع من جده ويونس الدبوسي والواديـاشي وغيرهم وتفقه وناب في الحكم وحدث بمكة وغيرها ، وكان قد انتسب إلى الحسن بن علي ، ودُعي بالشريف وسمعت بعض الأئمة يقول إن السبكي لما بلغه أن حمزة ادعى الشرف قال : إن ثبت ذلك فكلنا أشراف لأننا عصبة ؛انتهى من الدرر ، ج٢ ، ص :١٩٥ .

(٣) بعدها في النسختين كلمة غير واضحة .

والجيد والردي بل الذم والفقر كانا أحب إليه ، وسمعته ﷺ يقول : أنا استوى عندي الجيد والرديء و إنما أطلب الجيد لأصحابي . . أو كلامًا هذا معناه .

وبالجملة فكان حاله من أعظم الكرامات لكونه كان قليل المأكل كثير العبادة مخالطا للناس بظاهره مجانبا لهم في ما هم فيه بأفعالهم .

وسمعت عن بعض أهل الصلاح والخير أنه قيل له في المنام : إن الشيخ عبد الله [١١/ ب] دعاؤه رحمة للعباد .

وذكر لي الشيخ محمد ابن أخته وولد الشيخ الصالح عبد الرحمن قال : قبل موت الشيخ بقليل جاء شخص إلى المدرسة وسأل عن مطلع المالكية ثم سأل عن الشيخ فقالوا هو هذا فسلم عليه وقال رأيت في النوم قائلا يقول من أحب رسول الله ﷺ فليسلم على الشيخ عبد الله المنوفي قال فسألت عنه فدللت عليه .

وذكر لي الشيخ يعقوب الرسام[١] وهو من جملة أصحاب سيدي الشيخ قال : نمت[٢] عند الشيخ بالتربة فحصلت لي سنة والشيخ يتكلم مع الجماعة فسمعت شخصا يقول لآخر هؤلاء القوم لا يشقى جليسهم قال فانتبهت والمؤذن كما أخذ يسبح على المئذنة .

وذكر لي بعض أهل الخير أنه قال له سيدي الشيخ : كنت أود الانقطاع عن الناس ولكني لم يؤذن لي في الانقطاع عنهم .

*****

(١) لم أقف على ترجمته .

(٢) كذا بالنسختين ولعل صوابها (كنت) .